محمد محمد خليفة

حسان بن ثابت

هو شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم ، المنافح عنه الذي جعل نفسه وعرضه دريئة له ، المؤيد بروح القدس ينفث في لسانه ما يدمي مشاعر القرشيين ، ويجرح كبرياءهم .

هو حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو ، ويمتد نسبه إلى النجار فالخزرج حتى يصل إلى عامر ابن ماء السماء ، ثم ينتهي إلى قحطان ، فهو من بني النجار أخوال الرسول ، وهو خزرجي ، وفي عامر بن ماء السماء يلتقي باللخميين ملوك العراق وبالغساسنة ملوك الشام وأخيراً هو قحطاني .

وقد كثر فخر حسان بانتمائه إلى عامر بن ماء السما الذي يلتقي فيه بمحمد وحيه من المناذرة والغساسنة أولئك الذين أفاضوا عليه عطاياهم لأنهم جميعاً فروع لأصل واحد .

وكنيته : أبو الوليد وأبو عبد الرحمن وأبو الحسام .

وأمه : الفريعة بنت خالد بن قيس وهي خزرجية كحسان .

وكان مولده قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم بثمان سنوات ، وامتد عمره حتى مات في خلافة معاوية وعمره مائة وعشرون عاماً .

ونشأ بين قومه من الخزرج وهم يخوضون مع الأوس في المدينة غمار معارك تعددت أيامها ، واصطلى الجانبان بنيرانها ، والعربي الذي يعيش بين غبار المعارك ودمائها أحد رجلين : محارب يحمل السلاح فيذود به ، ويكسب مجداً ببطولته ، أو شاعر يرسل القوافي تثير وتهدد ، وتسجل المفاخر ، وتذيع الأمجاد ، ومن النوع الثاني كان حسان ، ومكانة الشاعر في المعارك لا تقل عن مكانة الفارس فالفارس ساعد القبيلة والشاعر لسانها يصور مواقفها وأمجادها إذا كانت فيه الموهبة القادرة على التصوير ، وكان حسان يختلس نفسه من ضجيج المعارك حيناً فيشارك العرب اجتماعاتهم في سوق عكاظ يسمع ما تجود به العبقريات الشاعرة ، ويُسمع من فيه ما قاله في عامه من روائع يعتد بها في الفخر أو في غيره ، وحينا يولي وجهه شطر الشام حيث ينسى بين ظلال نعماء الغساسنة آلام الحرب ومناظر الدماء التي تخلفها المعارك .

وعرف حسان كما عرف اليثربيون جميعاً دعوة الإسلام بعد بيعة العقبة ولكنه لم يسلم إلا بعد هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة .

وحين دقت أسماعه أهاجي شعراء قريش للرسول غلت مراجل أحاسيسه ، ورآه الرسول خير من يتزعم معركة الدفاع اللساني ، فندبه لهذه المهمة ونصب له في مسجده منبراً فراح حسان يصب من فوقه حمم الهجاء على قريش وعلى من عبأتهم من الشعراء لهجاء الرسول .

صِدقُ شاعِرِيَّته

تعمل البيئات عملها في خلق الأديب وتكوين شاعريته ، والشاعر الصادق هو ابن بيئته التي تحيط به ، وتؤثر فيه ، فتلهمه حيث يستلهمها ، ويفي لها فيترجم عنها ، وتصدق ترجمته كلما صدق تأثره فالبدوي الذي تشد بصره المفاوزُ الواسعة ويلمح سماءها الصافية أو الماطرة ونجومها الزاهرة ، وأرضها المقفرة ، أو وديانها المعشبة ، وآكامها الصخرية ، وجبالها الشامخة وكهوفها وأغوارها السحيقة ، ويبصر فوق رمالها الظباء السوائح ، وفي سفوح جبالها ووديانها الإبل والأغنام ذلك الذي يبصر كل ذلك خليق به أن يفتنّ في تصوير ما حوله ، وما يلم به بصره ، وأن ينتزع صوره من ذلك المحيط حتى يكون باراً ببيئته ، وأن يصدق عليه أنه وليدها الذي يحكي عنها حتى يلائم قوله أمزجة قومه وما يألفون من الصور وهو حين يفعل ذلك يكون الترجمان الصادق في تعبيره ، والمصور المبدع في تصويره .

وشاعر الريف الزاهر الذي يعيش بين أحضان الطبيعة يستلهم جمال الورود وشدو الطيور ، وخرير الجداول وفضيّ النهر في الليل المقمر ، وذهبيّ الجدول عند الأصيل فيلهمه كل ذلك فيضا من الإحساس بالجمال يحكيه شعراً ، ويرسله ترانيم شادية مثل ذلك الشاعر عملت فيه بيئته عملها فتجاوب معها وعبر عنها وكأنه الوتر العازف معها في ألحان الحياة .

فكل أولئك حين يصدرون عن وحي بيئاتهم يكون شعرهم مرآة تعكس للأجيال صور تلك البيئات وآثارها في عقولهم وتفكيرهم وتصويرهم وتعبيرهم .

■ فما هي البيئات التي أثرت في حسان وهل صدقت شاعريته ووفت لتلك البيئات ؟

لقد عاش حسان في جاهليته وإسلامه بين يثرب والشام .

أما يثرب فتكتنفها الجبال وتحيط بها لابتان من الحجارة السوداء قال في إحداها حسان :

ترى اللأَبــة السوداء يحمرُّ لونُها ويغْبرُّ منهــا كل ربــع وفدفــد

وحولها كثرة من بساتين النخيل والأعناب والفاكهة وكانت سوقاً للتجارات الواردة من اليمن والهند والشام وقد امدت هذه التجارات أهل يثرب بشيء من الثراء ، ولم تنم الحروب الناشبة بين الأوس والخزرج في الجاهلية فكانت الأيام بينهما متصلة الحلقات ومن أيامهم يوم بعاث ويوم سميحة ويوم الدرك ويوم الربيع ويوم البقيع ، وقد ورد بعض هذه الأيام في شعر حسان ، وكان نصيبه من تلك المعارك نصيب الشاعر المترجم تلك هي بيئته الطبيعية والاجتماعية الأولى .

وكانت الشام البيئة الثانية لحسان حيث كان ينزح إلى جوار الغساسنة العام بعد العام فيمدحهم ويقيم بينهم شهوراً ويعود بصلاتهم وعطاياهم ، وبلاد الشام غنية منذ بعيد بالزراعة والفاكهة والتجارة وعاش ملوكها بين البذخ والنعيم . وتمتع معهم بذلك البذخ الكثير من شعراء العرب ومنهم حسان ، وقد شهد حسان في الشام جمال الطبيعة في رياضها وجداولها المنسابة كما شهد مجالس اللهو والغناء ، ورأى آثار الحضارتين الرومانية واليونانية اللتين امتدتا إلى الشام أثراً للاتصال والجوار ، ولهذه البيئة الثانية أثرها فيه . فلما أسلم حسان شغله الدين الجديد ، ورأى في القرآن وما فيه زاداً لشاعريته ، وكان في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدور فيه من مسائل الدين والعلم والاقتصاد والسياسة والحرب بيئة ثقافية جديدة لشاعرية حسان وقد عاش مع الأحداث الدينية والسياسية والاجتماعية التي كانت في حياة الرسول وبعده ، وشهد الغزوات وعاصر المعارك الدائرة بين المسلمين والفرس والروم كما عاصر الخلافات التي كانت بين المسلمين واليهود والتي كانت في سقيفة بني ساعدة بين المهاجرين والأنصار ، وعاصر الفتنة الكبرى التي راح ضحيتها عثمان وما كان وراءها من معارك في البصرة وصفين .

وقد تفاعلت كل هذه المؤثرات مع مشاعر حسان فأرسل شعره يصور تلك الأحداث بل حمل العبء الأكبر في تصوير الدعوة وأحداثها منذ أسلمه الرسول صلى الله عليه وسلم زعامة الدفاع عنه وعن دعوة الإسلام فنهض حسان بذلك العبء وروح القدس يؤيده .

ونضيف إلى تلك المؤثرات مؤثراً جديداً كان له أثره الكبير فيه ، وهو أن بيت حسان كان بيت الشعر

والشعراء فقد كان أبوه ثابت شاعراً وكان جده المنذر شاعراً وجد أبيه حرام كان شاعراً وكان عبد الرحمن ابن حسان شاعراً وكان حفيده سعيد بن عبد الرحمن شاعراً وكانت ابنة حسان شاعرة فكان حسان في هذا البيت واسطة عقد الشعراء في تلك الأسرة الشاعرة .

وقد حدثوا أن حساناً قال يوماً :

وإن امرأ يمسي ويصبح سالما ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

فقال ابنه عبد الرحمن :

وإن امرأ نال الغنى ثم لم ينل ... صديقاً ولا ذا حاجة لزهيد

وأنشد بعد ذلك حفيده سعيد :

وإن امرأ لاحى الرجال على الغنى ... ولم يسأل الله الغنى لحسود

كما حدثوا أن شاعرنا أرق ليلة فقام يعالج الشعر فقال :

وقافية عجّت بليل رزينة ... تلقيت من حر السماء نزولها

وانقطع الإلهام عنه فلم ينطق فقالت ابنته : أو أجيزك ؟ فقال لها : وعندك ذلك ؟ قالت : نعم قال : فافعلي ، فقالت :

يراها الذي لا ينطق الشعر عنده ... ويعجز عن أمثالها أن يقولها

فهاج حسان وقال :

متاريك أذناب الحقوق إذا التوت ... أخذنا الفروع واجتثثنا أصولها

فقالت : مقاويل بالمعروف حرس عن الخنا ... كرام معاط للعشيرة سولها

وشهد الأصمعي لعبد الرحمن بن حسان بالشاعرية السباقة في قوله في وصف السحاب :

كأن الرباب دوين السحاب ... نعام تعلّق بالأرجل

وكانت شاعرية عبد الرحمن مبكرة حيث قالوا : إن معلم الصبيان أراد معاقبته على تأخره عن موعد الحضور إلى المكتب فقال عبد الرحمن وهو صبي معتذراً :

الله أعلم أني كنت منبذاً ... في دار حسان أصطاد اليعاسيبا

❀ ❀ ❀

بين حسان وشعراء قريش بعد إسلامهم

كان حسان ورواة شعره يتناشدون في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم أهاجي حسان في القرشيين حيث كانت تستعرض خواطرهم ذكريات الماضي ومواقفه ومعاركه .

وخشي عمر في خلافته على وحدة العرب أن يمزقها تذكر الثارات وإحياء الضغائن ، فنهى الناس عن تناشد ذلك الشعر المثير لدفين الماضي ، ومر يوماً بحسان وهو في مسجد الرسول ينشد أهاجيه فأخذ بأذنه وقال له : أرغاء كرغاء البعير ؟ فقال حسان : دعنا عنك يا عمر فوالله لتعلم أني كنت أنشد في هذا المسجد من هو خير منك ، فقال عمر : صدقت وانطلق .

ووفد على المدينة في خلافة عمر عبدالله بن الزّبعري وضرار بن الخطاب وقد كانا من شعراء قريش الذين هجوا رسول الله ، فاجتمعا بحسان فقال ابن الزبعري : يا أبا الوليد إن شعرك كان يحتمل في الإسلام ولا يحتمل شعرنا ، وقد أحببنا أن نسمعك ، فقال حسان : أفتبدآن أم أبدأ ؟ قالا : نبدأ نحن فأنشداه أهاجيهما فيه ، ففار كالمرجل غضباً ، ثم استويا على راحلتيهما يريدان مكة ، فخرج حسان حتى دخل على عمر فقص عليه قصتهما ، فقال عمر لرسوله : لو لم تدركهما الا بمكة فارددهما عليّ ، فأدركهما الرسول بالروحاء فردهما ، فدعا لهما بحسان ، وكان عمر في جماعة من الصحابة ، فقال لحسان : أنشدهما مما قلت فيهما ، فأنشدهما حتى فرغ ، فقال له عمر : أفرغت ؟ فقال حسان : نعم ، قال عمر : أنشداك في الخلا وأنشدتهما في الملا ، وقال لمن حضر : إني كنت نهيتكم أن تذكروا ما كان بين المسلمين والمشركين من أهاج دفعا للتضاغن ، وبث القبيح فيما بينكم فأما إذا أبوا فاكتبوه واحتفظوا به فدونوه ، وكان الأنصار يجددونه كلما خافوا عليه البلى .

❀ ❀ ❀

من مدائحه في الغساسنة

أفاض الغساسنة عطاياهم على حسان فلم ينس لهم تلك الأيادي وأفاض فيهم من المدائح ما بقي خالداً على الزمن ، وكم تغنى القيان لجبلة بن الأيهم أحد ملوكهم وهو في القسطنطينية بشعر حسان فاستعرضت خواطره الصور التي أثارها شعر حسان ومن تلك الأغاني التي كن يتغنين بها من شعر حسان قوله في الغساسنة :

لله درُّ عصابة نادمتهم ... يوماً بجلّق في الزمان الأوّلِ
يمشُون في الحُلل المضاعف نسجها ... مشيَ الجِمال إلى الجمال البُزّلِ
الضاربون الكبش يبرق بيضه ... ضرباً يطيح له بنان المِفْصَلِ
والخالطون فقيرَهم بغنيهم ... والمنعمون على الضعيف المرملِ

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضلِ
يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبلِ
بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأولِ

جلق بكسر الجيم وتشديد اللام المفتوحة : دمشق ، البُزّل بضم الباء وتشديد الزاي المفتوحة جمع بازل وهو ما استكمل السنة الثامنة من الإبل ، الكبش : سيد القوم وحاميهم ، البيض : جمع بيضة وهي الخوذة والمراد ببنان المفصل : أطراف الأصابع ، المرمل : الذي نفد زاده ويراد به الفقير ، وجفنة : أبو ملوك آل غسان وهو مزيقيا ، ومارية بنت الأرقم وينتهي نسبها إلى مزيقيا وضرب بقرطيها المثل حيث كان فيهما مائتا دينار ، الهرير : صوت الكلاب ، شم الأنوف : كناية عن العزة ، الطراز : فارسي معرب ومعناه الشكول العظيمة لقد كان هذا الشعر ألحاناً وترانيم تتجاوب الأصوات فيه مع الأوتار فتهز الأسماع والقلوب ، إنه شعر حسان يمدح في إعجاب وعجب أولئك الذين كان ينادمهم في دمشق ، وهم أولئك الشجعان الذين يلبسون الحلل والدروع المضاعفة النسج ، ويمشون مشي الجمال الأقوياء ، أولئك الذين لا ينازلون غير الكماة فيطيحون بهم ، أولئك الذين طبقوا نظم الإسلام الاجتماعية وإن لم يعرفوا الإسلام فخلطوا بين الأغنياء والفقراء ، وكلهم لديهم سواء ، وقد أغدقوا كرمهم على المرملين المعدمين ، إنهم أولاد جفنة الكرماء الذين جثموا حول قبر أبيهم يعطون العفاة والمجتدين ، هم الكرماء بيض الوجوه وهم الأعزاء شم الأنوف .

تلك هي الأغاني التي تشنف بها القيان أسماع جبلة ومن حوله فيعيشون مع خواطر حسان وأفكاره ، وإن لم يكن معهم حسان .

وحسبنا هذا النموذج من شعره الجاهلي الذي وضعه في مصاف النابغين من أمثال النابغة الذبياني .

❀ ❀ ❀

شعر حسان في الإسلام

لم يقف حسان قصائد من شعره على الدعوة الإسلامية وحدها ، ولكنه تكلم عن هذه الدعوة وأصولها وما اشتملت عليه في قصائد متفرقة في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام أو في مراثيه له ولغيره من الصحابة ، أو في أهاجيه التي طعن بها قريشاً أو بعضاً من معاندي قريش .

وقد تأثر في شعره الإسلامي إلى حد كبير بالأساليب والمعاني القرآنية ، وقد لا نكون مغالين إذا قلنا إنه قمة شعراء الإسلام تأثراً بالقرآن .

قال من قصيدة يمدح بها الرسول عليه الصلاة والسلام :

أغرُّ عليه للنبوة خاتمٌ ... من الله مشهود يلوح ويشهدُ
وضمَّ الإله اسم النبي إلى اسمه ... إذا قال في الخمس المؤذنُ أشهدُ
وشقَّ له من اسمه ليجلّه ... فذو العرش محمود وهذا محمدُ
نبيٌّ أتانا بعد يأس وفترة ... من الرسل ، والأوثان في الأرض تعبدُ
وأنذرنا نارا وبشّر جنّةً ... وعلمنا الإسلام فالله نحمدُ
وأنت إله الخلق ربي وخالقي ... بذلك ما عُمِّرتُ في الناس أشهدُ
تعاليت رب الناس عن قول من دعا ... سواك إلهاً أنت أعلى وأمجدُ
لك الخلق والنعماء والأمر كله ... فإياك نستهدي وإياك نعبدُ

يقدم الشاعر الدليل المرئيّ على صدق نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم في خاتم النبوة الذي وسمه الله به بين كتفيه والذي يعلمه الأحبار والرهبان بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، ثم ذكر الشاعر تكريم الله لنبيه حيث ضم اسم النبي إلى اسمه في الشهادتين اللتين ينطق بهما المؤذن خمس مرات كل يوم كما كرمه باشتقاق اسمه من وصفه فالله محمود واشتق لرسوله من ذلك الوصف اسم محمد ، وبين الشاعر أن الله أرسل رسوله بعد أن يئست نفوس المتأملين المتبصرين من الحنفاء في هداية هذه البشرية التي تخر هاماتها للأوثان وبعد فترة من الرسل،والشاعر في هذه المعاني متأثر بالأسلوب القرآني : (**يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ**)

أنذر بالنار وبشر بالجنة ، وعلم الناس الإسلام ورأى الشاعر أن هذا من النعم التي ينبغي أن يحمد الله عليها .

ثم أعلن الشاعر عبوديته للخالق ، وشهد له بالربوبية ، ونزهه عن دعوى المفترين فهو وحده الخالق المنعم والأمر لله وحده (**لله الخَلْقُ وَالأَمْرُ**) وهو وحده المعبود .

في ظلال تلك المعاني الإسلامية عاش الشاعر بأحاسيسه وعقيدته متأثراً بدعوة الحق وبأسلوب القرآن فغير ما قدمنا نرى قوله:وأنت إله الناس ربي وخالقي قد تأثر فيه بقوله تعالى : (**وَمَالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي**) وقوله : تعاليت رب الناس عن قول من دعا سواك ... فيه رد على المشركين الذين حكى القرآن إشراكهم في قوله : (**مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى**) وعلى اليهود والنصارى الذين حكى القرآن معتقداتهم في قوله : (**وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى المَسِيحُ ابْنُ اللهِ**) وقوله : (**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابنَ مَرْيَمَ**)

وقول الشاعر : فإياك نستهدي وإياك نعبد ، تأثر فيه بقوله تعالى : (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ . اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ، ولعلنا بعد هذا أدركنا إلى أي مدى تأثر شعر حسان بالقرآن .

❀ ❀ ❀

مِنْ شِعْرِ حَسَّانَ الْمُرْتَجَلِ فِي الْوُفُودِ

بعد أن فتحت مكة تدفقت وفود القبائل العربية على المدينة تعلن إسلامها أو تفاخر الرسول بأمجادها وتكشف عن مكانها وعزتها ، وسمي ذلك العام عام الوفود لكثرة الوفود التي قدمت فيه على الرسول . وكان بين تلك الوفود وفد تميم وحينما ظهر لهم الرسول قالوا : يا محمد جئنا لنفاخرك فأذن لشاعرنا وخطيبنا قال : أذنت لخطيبكم فليقل ، فقام عطارد بن حاجب فخطب ، ولما انتهى قال الرسول لثابت بن قيس : قم فأجب الرجل فخطب ثابت ، ثم أذن لشاعرهم الزبرقان بن بدر فبدأ قصيدته بقوله :

نحن الكرام فلاحيٌّ يعادلنا ... منا الملوك وفينا يُقْسَمُ الرُّبُعُ

والربع : ربع الغنيمة وكانوا إذا غزوا في الجاهلية أخذ الرئيس ربع الغنيمة وحده وذلك ما سمي بالمرباع ولم يكن حسان في المجلس حين حضر وفد تميم فبعث إليه الرسول فلما حضر سمع قصيدة الزبرقان ولما انتهى منها قال عليه الصلاة والسلام قم يا حسان فأجب الرجل فقام حسان يرتجل :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تُتَّبَعُ
قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهمُ ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سَجِيَّةٌ تلك منهم غير مُحْدَثَةٍ ... إن الخلائق فاعلم شرها البدَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوهت أكفُّهمُ ... عند الدفاع ولا يوهون ما رقعُوا
إن كان في الناس سبّاقُون بعدهمُ ... فكل سبق لأدنى سبقهم تَبَعُ
ولا يضنُّون عن مولى بفضلهمُ ... ولا يصيبهمُ في مطمع طَبَعُ
أعطوا نبي الهدى والبر طاعتهم ... فما وَنى نصرُهم عنه وما نزعوا
إن قال سيروا أجدُّوا السير جهدهمُ ... أو قال: عوجوا علينا ساعة ربعوا
ما زال سيرهم حتى استقاد لهم ... أهلُ الصليب ومن كانت له البيعُ
خذ منهم ما أتى عفواً إذا غضبوا ... ولا يكن همك الأمر الذي منعوا
فإن في حربهم ـ فاترك عداوتهم ـ ... شراً يُخاضُ عليه الصَّابُ والسَّلَعُ

نسمو إذا الحرب نالتنا مَخَالِبُها ... إذا الزعانف من أظفارها خشعوا
لا فخر إن هم أصابوا من عدوهم ... وإن أُصيبوا فلا خُور ولا جُزُعُ
كأنهم في الوغى والموت مُكْتَنِعٌ ... أُسْدٌ ببيشة في أرساغها فَدَعُ
إذا نصبنا لقوم لا نَدبّ لهم ... كما يدب إلى الوحشية الذُّرُعُ
أكرم بقوم رسول الله شيعتُهم ... إذا تفرقت الأهواء والشِّيَعُ

الذوائب : الأعالي ويراد منها السادة ، فهر : أصل قريش ، السجية : الطبيعة ، الطبع بتشديد الطاء المفتوحة وفتح الباء : العيب والدنس ، الونى : الفتور والضعف ، ربع بالمكان : أقام فيه ، استقاد لهم أهل الصليب أعطوهم المقادة ، الصاب : شجر يعتصر فتخرج منه قطرات إذا وضعت في العين كانت كالنار وقيل الصاب : عصارة الصبر ، والسلع : نوع من الشجر ، الزعانف : السفلة من الناس ، الخور بضم الخاء : الضعفاء من الناس ، الجزع بضم الجيم والعين جمع جازع : ضد الصابر ، المكتنع : القريب ، بيشة : موضع تنسب إليه الآساد ، الفدع : العوج ، الذُّرُع بتشديد الذال المضمومة وضم الراء : كل ما استتر به ، الذريعة : جمل يختل به الصيد فيترك مع الصيد حتى يألفه ثم يستتر به الصياد حتى يتمكن من فريسته .

عرض الزبرقان بن بدر شاعر تميم مفاخرهم في أنهم الملوك الكرام القاهرون لأعدائهم المطعمون عند القحط الذين يدين لهم السادة والأشراف وينقاد لأمرهم كل مفاخر ولا يفاخرهم أحد ، وهم يفخرون على كل أحد . أما حسان فقد رد بما أملاه عليه دينه أولاً وهو هداية الناس وتوجيههم إلى تقوى الله واتباع شريعته ثم رد على قول تميم بأنهم القاهرون للأعداء بتهديد ووعيد : (قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم) ثم قابل ذلك بأنهم النافعون للأشياع ، فليست حياتهم قصراً على الشر دأب الكثير من قبائل العرب في جاهليتهم ، وأمعن حسان في الكشف عن قوة فتك المسلمين فبين أن الناس لا يستطيعون علاج ما يوقعونه بهم فهم الذين لا يقهر حليفهم ، وهم السباقون وكل سبق تابع لسبقهم ، وهم الذين لا يدنسون حياتهم بعيب ، والعقلاء الحلماء الذين لا يركنون إلى الجهل والحمق ، لأن في أخلاقهم سعة وأنهم أسلموا نفوسهم وطاعتهم لرسول الله ومن ثم آتاهم الله النصر من عنده ووضح الطاعة بأنهم يَجدون إذا استنهضوا ، ويقفون إذا أمروا . وما زال وضعهم كذلك حتى دان لهم أهل الصليب والبيع .

وكشف عن المسلمين في الحروب كشف تهديد فحروبهم شر يخاض فيها الصبر ، وهم الشجعان المتسامون بصفاتهم حين يجزع الناس من أظفار الحرب ومخالبها ، وليسوا بالفخورين حين ينالون من عدوهم ، ولا الضعفاء إذا نيل منهم وهم أسد بيشة يخافهم منازلوهم ، ولا يخاتلون في حروبهم فيدبون إلى عدوهم دبيب الصياد المخاتل الذي يتخذ دريئة يخدع بها صيده حتى يصيده ، فذلك فعل الجبان وهم ليسوا جبناء ، وحسبهم أن يكون رسول الله شيعتهم حين تفرق الأهواء القلوب .

وليس بمعقول بعد هذا الفيض من المعاني والقوة التي أخذت على بني تميم كل سبيل أن يثبتوا في ميدان المفاخرة ، وقد قرأ الأقرع بن حابس في وجوه قومه الاقتناع بل الاستسلام فقال : وأبي إن هذا الرجل لمؤتىً له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، وشاعره أشعر من شاعرنا ، وأصواتهم أعلى من أصواتنا ولم يكد يقضي بما قضى حتى خشعت الرؤوس أمام قوة السماء وتأييدها فأعلنوا إسلامهم .

ومن عجب أن يرسل حسان ذلك الشعر ارتجالاً في موقف التحدي والمفاخرة أمام أرباب البيان وما أعد لهذا الموقف أو ليس يدل هذا على شاعرية دامغة يؤيدها روح القدس ؟

❀ ❀ ❀

الغزوات والسرايا في شعر حسان

غزا المسلمون ثلاثين غزوة قادها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا غزوة مؤتة فلم يشهدها ، وورد ذكر بعض الغزوات في القرآن ، وسجل التاريخ تلك الغزوات في أمانة علمية صادقة ، وكان حسان الشاعر المصور لتلك المعارك والشاعر المؤرخ في بعضها حين راح يسرد سرد المؤرخين ما كان من أحداث ، وإذا ماراعه موقف بطولة صوره ، وإذا ما شاهد فراراً وانكساراً أوجبنا أرسل خواطره وراءه ليقدم للزمن صورته ، وقد تغريه مواقف الأهل بالفخر فيشدو ويفتخر ، وقد تناول شعر حسان الغزوات والسرايا وكشف عما كان فيها من بطولات وربما أرسل في الغزوة الواحدة أكثر من قصيدة كبدر فقد تناولها في سبع قصائد ، ولم يعن حسان كثيراً بتصوير رحى المعارك بل كان مؤرخاً في أكثرها أكثر منه شاعراً ، ولعل الحقائق التاريخية شغلته عن الاسترسال في الخيال وإبداع الصور وهذه أبيات من قصيدة قالها في غزوة بدر يقول :

بنو الأوس الغطارف آزرتها ... بنو النجار في الدين الصليبِ
فغادرنا أبا جهل صريعاً ... وعتبة قد تركنا بالجبوبِ
وشيبة قد تركنا في رجال ... ذوي حسب إذا نسبوا نسيبِ
يناديهم رسول الله لما ... قذفناهم كباكب في القليبِ
ألم تجدوا حديثي كان حقاً ... وأمر الله يأخذ بالقلوبِ
فما نطقوا ولو نطقوا لقالوا ... صدقت وكنت ذا رأي مصيبِ

الغطارف : جمع غطريف : السيد ، الدين الصليب : المتين ، الجبوب : الأرض الغليظة ، الكباكب : جمع كبكبة الجماعة من الناس ، القليب : البئر .

في هذه الأبيات نزع حسان إلى الفخر بموقف الأوس وبني النجار في المعركة لنصرة دين الله المتين ثم انتقل إلى بيان مصرع سادة قريش في بدر وهم : أبو جهل وعتبة وشيبة ، ثم بين نداء رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقف على القليب ينادي أولئك الذين طواهم القليب ، وانطوت معهم بعض صفحات العناد ، ودفنت كبرياء قريش ، ولو أنطقهم الله حين نودوا لقالوا لرسول الله : لقد صدقت في دعوتك وكنت صاحب الرأي السديد .

وخليق بنا أن نسمي هذا اللون من القول المنظوم نظماً لا شعراً فهو كتلك الأراجيز التي نظمت بها قواعد العلوم والتاريخ وليس شعراً يحلق فيه الخيال ويطير ما سمحت له أجواؤه .

❀ ❀ ❀

حول فرار الحارث بن هشام يوم بدر

حنين

اشتدت رحى القتال في بدر لم يثبت الحارث بن هشام شقيق أبي جهل وقد رأى أبطال قريش تعصف بهم رياح الموت فآثر الفرار والنجاء من أهوال المعركة وقد عيره الناس بفراره فقال :

الله يعلم ما تركت قتالهم ... حتى علوا فرسي بأشقر مزبد
ووجدت ريح الموت من تلقائهم ... في مأزق والخيل لم تتبدد
وعلمت أني إن أقاتل واحداً ... أقتل ولا يضرر عدوى مشهدي
فصدفت عنهم والأحبة دونهم ... طمعاً لهم بعقاب يوم مفسد

وبهذا الأسلوب اعتذر الحارث عن الفرار لأنه لا يضر المسلمين شهود الحارث وإنه ليطمع في يوم يثأر فيه للأحبة الذين خلفهم صرعى في بدر .

والحارث هذا هو ابن هشام بن المغيرة وأمه أسماء بنت مخربة وأمها عقاب كانت بنت أمة لرجل من تغلب فكانت جدته لأمه بنت أمة وذلك ما عير به حسان الحارث في كل أهاجيه له ، وهذا النسب لم يغب عنه أبو بكر أستاذ علم الأنساب ذلك العلم الذي تلقاه عنه حسان فهجا الكثير من القرشيين دون أن يمس نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد تناول حسان فرار الحارث يوم بدر فقال :

يا حار قد عولت غير معول ... عند الهياج وساعة الأحساب
إذ تمتطي سرح اليدين نجيبة ... مرطى الجراء خفيفة الأقراب
والقوم خلفك قد تركت قتالهم ... ترجو النجاء فليس حين ذهاب

هلا عطفت على ابن أمك إذ ثوى ... قعصى الأسنة ضائع الأسلاب
جهماً لعمرك لو دهيت بمثلها ... لأتاك أجثم شابك الأنياب
عجل المليك له فأهلك جمعه ... بشنار مخزية وسوء عذب
لو كنت ضِنْيء كريمة أبليتها ... حسنى ولكن ضِنْيء بنت عقاب

هذه صورة قدمها حسان لفرار الحارث وهي صورة فيها شيء من الحياة والتعبير إذ كشفت عن صورة المعركة في هياجها وصورة الحارث على فرس طويلة اليدين سريعة الجري خفيفة الخاصرة وهو يمعن في الهرب والعدو بها لا يلوي على شيء ، ولا يلتفت وراءه لشقيقه وهو يهلك ويضرب بسلاحه بعد أن جرد من كل ما اعتد به من سلاح وهو عاجز ضعيف يجثم كما تجثم الإبل وقد تشابكت أنيابه واختلفت غيظاً حين علاه ابن مسعود وراح يحتز رأسه ، وقد أعجل الله له ولجمعه الهلاك والعار والعذاب .

ثم طعن ذلك الهارب في أصله فهو ليس من أب عربي وأم عربية ، ولو كان عربي الأم لطاب معدنه وآثر الموت على الفرار الذي نجا فيه بنفسه تاركاً وراءه شقيقه يتخبط في دمه وليس بغريب على ابن بنت الأمة أن يفر من الأهوال .

وقد أسلم الحارث يوم الفتح وحسن إسلامه وحارب في عهد الفاروق عمر في حروب الشام وقد مات في طاعون عمواس وقيل في اليرموك بعد أن جاهد في سبيل الله حق الجهاد لعله يكفّر عن مواقفه من الإسلام والمسلمين قبل أن يسعده الله بالإسلام .

على ماء بدر

وقد قدم حسان صورة لجيش المسلمين في المغافر والدروع والأسلحة يتقدمون في قوة وجلد وإيمان وثبات إلى ماء بدر حيث وقفت قريش عنده بثلاثة أمثال جيش المسلمين وهي تُصرُّ على منعهم من ورود الماء ولكن الرسول ما كان ليتراجع أمام أية قوة وتقدم إلى الماء غير مكترث بتهديد حتى شرب وشرب المسلمون وبقي ماء بدر تحت أيديهم لم تزحزحهم عنه قريش لأنهم مستمسكون بحبل الله ، وحبل الله لا يضيعه مؤمن ولا ينقطع من يد مستوثق قال حسان من قصيدة يصور فيها المسلمين :

مُسْتَشْعِرِي حَلَقَ الماذيّ يقدمهم ... جَلْدُ النّحيزة ماض غير رعديدِ
أعني الرسول فإن الله فضّله ... على البرية بالتقوى وبالجودِ
وقد زعمتم بأن تحموا ذِماركم ... وماء بدر زعمتم غير موردِ
وقد وردنا ولم نسمع لقولكمُ ... حتى شربنا رَواء غير تصريدِ

مستعصمين بحبل غير منجزم مستحكم من حبال الله ممدودِ

استشعر الثوب لبسه على جسده مباشرة دون حائل بينه وبين الجسد ، الماذي : الدرع البيضاء، الجلد بفتح الجيم : القوي الصبور ، النحيزة : الطبيعة ، الرعديد : الجبان ، الذمار : كل ما يجب على الإنسان حفظه من متاع وحمى وعرض ، الرواء بفتح الراء المشددة : الماء الكثير العذب ، التصريد : شرب دون الري الاعتصام : التمسك ، المنجزم : المنقطع ، المستحكم : المستوثق .

❀ ❀ ❀

يوم أحد

لم تكد قريش تكسب جولة في أحد حتى هتف شاعرها ابن الزبعري بحسان يناديه :

يا غراب البين أسمعت فقُلْ إنما تنطق شيئاً قد فُعِلْ
أبلغا حسان عني آية فقريضُ الشعر يشفي ذا الغلَلْ
ليت أشياخي ببدر شهدوا جزَعَ الخزرج من وقع الأسَلْ

فجاوبه حسان وعارضه بقوله :

ذهبت بابن الزبعري وقعة كان منا الفضل فيها لو عدلْ
ولقد نلتم ونلنا منكم وكذاك الحرب أحياناً دُوَلْ
إذ شددنا شدة صادقة فاجأناكم إلى سفح الجبل

ولم يشتف حسان بتلك القصيدة التي عارض بها ابن الزبعري فأرسل حسان قصيدة أخرى منها :

ما أبالي أنَبَّ بالحَزْن تيس أم لحاني بظهر غيبٍ لئيمُ
وَلَيَ البأسَ منكمُ إذ حضرتم أسرةٌ من بني قُصَيٍّ صميمُ
تسعة تحمل اللواء وطارت في رعاع من القنا مخزومُ
لم يولوا حتى أبيدوا جميعاً في مقام وكلهم مذمومُ
وأقاموا حتى أزيروا شَعوباً والقنا في نحورهم محطومُ
وقريش تلوذ منا لواذاً لم يقيموا وخفَّ منها الحلومُ
لم تطق حمله العوائق منهم إنما يحمل اللواء النجومُ

أنبٌ التيس بتشديد الباء المفتوحة : صاح عند الوثوب للسفاح ، الحزن بفتح الحاء : ما غلظ من الأرض ، لحاه : شتمه ، الصميم : الخالص ، الرعاع : الضعفاء ، شعوب بفتح الشين : الموت ، لواذاً : مستترين ، الحلوم : العقول ، العاتق : ما بين الكتف والعنق ، النجوم هنا : يراد بهم الأشراف .

يذكر حسان في هذه الأبيات أن الأهاجي التي يرسلها ابن الزبعري لا تشبه إلا صياح التيوس وأنه لا يكترث بشتائم يرسلها لئيم خامل في قومه ، ثم راح يعير قريشاً بمقامها في أحد حين تولى حمل اللواء نفر من بني قصي تساقط منهم تسعة تعاقبوا حمل اللواء فسقطوا واحداً إثر آخر ، فلما لم تجد قريش لواءها مرفوعاً فروا ولكنهم أبيدوا جميعاً ، وأوردوا المنايا ، وقدم الشاعر صورة لقريش تستتر وتستخفى وقد طاشت عقولها من الهول .

وقدم الشاعر أكثر من صورة للمعركة المضطربة : صورة الفرار ، وصورة الإبادة ، وصورة قريش تساق إلى الموت والرماح محطومة في ظهورها ، وصورة للمتسللين الذين أذهلهم الخوف فطلبوا الحياة وراء صخور الشعاب بعيداً عن عيون المسلمين (وكل ذلك كان في الفترة الأولى قبل أن تطلع عليهم خيول خالد) .

❀ ❀ ❀

حسان يتحدث عن غزوة الخندق

تجمعت جيوش الأحزاب : اليهود وغطفان وقريش حول المدينة بعد أن تم حفر الخندق حولها وجعل المسلمون ظهورهم إلى جبل سلع استعدادا للقاء الأعداء ، وسهر الصحابة يحرسون الثغرات ، ثم جاءت آية الله ريحاً صرصراً أطارت الخيام والقلوب ، ومزق الله الأحزاب شر ممزق (وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) بهذا حدث القرآن والتاريخ ، وانطلقت شاعرية حسان متأثرة بالقرآن فقال :

جيش عيينة وابن حرب فيهم ... متخمطين بحلية الأحزاب
حتى إذا وردوا المدينة وارتجوا ... قتل النبي ومغنم الأسلاب
وغدوا علينا قادرين بأيدهم ... ردوا بغيظهم على الأعقاب
بهبوب معصفة تفرق جمعهم ... وجنود ربك سيد الأرباب
وكفى الإله المؤمنين قتالهم ... وأثابهم في الأجر خير ثواب

عيينة : هو عيينة بن حصن الفزارى قائد غطفان ، ابن حرب : أبو سفيان ، المتخمطون : شديدو الغضب والحلية : الصورة وفي، رواية : حلبة : ويراد بها اجتماع القوم ، الأيد : القوة ، الريح المعصفة : الشديدة الهبوب .

وكان حسان في هذه الأبيات من القصيدة مؤرخاً حيث قدم عيينة وأبا سفيان غاضبين في صورة الأحزاب التي اجتمعت وليس لهم من هدف حين جاءوا المدينة غير قتل النبي والظفر بالأسلاب وحينما اعتزوا بقوتهم وكثرتهم ردهم الله على أعقابهم مغيظين وفرقت جموعهم ريح عاصفة وجنود من عند الله وكفى الله المؤمنين القتال وأجزل لهم الثواب ، وكان حسان في شعره هذا مردداً ما قاله القرآن في سورة الأحزاب . في قوله تعالى :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا) .

وقوله :

(وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ) .

وتناول حسان في غير هذه القصيدة أحداثاً جانبية في الغزوة كمصرع ابن عبد ود .

❀ ❀ ❀

ولم يتخلف حسان عن تقديم صور لغزوة قريظة وغزوة بني النضير وذي قرد وتناول تلك الغزوات في أكثر من قصيدة وكان صدر قصيدته في بني قريظة :

لقد لقيت قريظة ما غطاها ... وحل بحصنها ذل ذليل

غطاها : ساءها .

وقال في غزوتي بني قريظة وبني النضير :

لقد لقيت قريظة ما سآها ... وما وجدت لذلك من نصير
أصابهم بلاء كان فيهم ... سوى ما قد أصاب بني النضير

سآها : ساءها .

وغزوة ذي قرد تلك التي أغار فيها عيينة بن حصن على إبل حوامل ذات ألبان لرسول الله صلى الله عليه

وسلم فاستاقوا تلك الإبل وركب الأنصار في طلبهم وفيهم قتادة الأنصاري والمقداد فردوا الإبل وفر المغيرون بعد معركة غلبت فيها القلة المؤمنة الكثرة الباغية وتناول حسان تصوير ذلك في قصيدة فقال :

هـل سـرّ أولاد اللقيطـة أننا سلم غـداة فوارس المقـداد

واللقيطة : أم حصن وكان قد التقطها حذيفة مع جوار أخر في سنة مجدبة ثم تزوجها .

كان حسان من طلائع الشعراء المخضرمين في الفخر ففخر في جاهليته بحسبه ونسبه الذي ينتمي إليه ويجتمع فيه مع ملوك الحيرة الغساسنة ، فهو كما قدمنا خزرجي من بني النجار ، وينتهي في الماضي البعيد إلى مزيقيا الأب الأكبر للخميين ملوك الحيرة والغسانيين ملوك الشام .

ولم يغب عنه بعد إسلامه الفخر بذلك النسب القريب والبعيد وكثر بعد إسلامه فخره بأنصاريته .

فخره في الجاهلية

لحسان في الجاهلية شعر يزخر بالمفاخر بلسانه ويده وسيفه وكرمه وخلقه ثم بأهله : بشجاعتهم ومكانتهم وأمجادهم وأصولهم وهو حين تفور مشاعره للفخر يذكر المرأة فيناديها لتعلم حقيقته كما فعل عنترة في قوله : « هلا سألت الخيل يا ابنة مالك » كذلك يكشف حسان عن حقيقته لمحبوبته شعثاء فيقول :

لعمر أبيك الخير يا شعث ما نبا ... على لساني في الخطوب ولا يدي[1]
لساني وسيفي صارمان كلاهما ... ويبلغ ما لا يبلغ السيف مِذْوَدِي[2]
وإن أكُ ذا مال قليل أجُدْ به ... وإن يهتصر عودي على الجهد يحمد[3]
فلا المال ينسيني حيائي وعفتي ... ولا واقعات الدهر يَفْلُلْنَ مبردي
أكثر أهلي من عيالٍ سواهمُ ... وأطوي على الماء القراحِ المبرَّد
وإني لمعط ما وجدت وقائل ... لموقد ناري ليلة الريح أوْقِدي

وهكذا يشير حسان في هذه الأبيات إلى أن له لساناً وسيفاً وكلاهما صارم وأن لسانه أقوى حدة من سيفه ولم يثبت لحسان في جاهليته ولا في إسلامه موقف من مواقف البأس والصرامة كما لم يثبت له إيقادُ نار يهتدي بها الساري في دلج الليل وأنه أكثر أهله بعيال غيرهم (إنه الشعر التقليدي) سار فيه حسان على نهج من سبقه من الشعراء الشجعان والكرماء .

---

(١) نبا الشيء : تباعد وتجافى .
(٢) المذود : اللسان .
(٣) قصد بالعود : نفسه ، واهتصاره : عصره .

وقد فخر حسان بخزرجيته فوضع بين يدي الزمان صوراً لمكانتهم بين اليثربيين في قوله :

ويثرب تعلم أنّا بها ... إذا خافت الأوسَ جيرانُها
متى ترنا الأوس في بيضنا ... نهز القنا تَخْبُ نيرانها

وقد أفاض حسان في الكشف عن مكانة الخزرجيين في هذه القصيدة فهم حماة أهل يثرب في المواطن التي يفزع الأوس من هولها وهم حملة القنا والرماح وهم الذين أسلمهم الأوس القياد في مواطن الفزع إلى آخر ما جادت مشاعر الفخر .

❀ ❀ ❀

تفاخره في شعره الإسلامي

لم يغمض الشاعر الطرف عن الماضي بعد إسلامه، بل كان كثير التغني بمفاخر أهله كلما سنحت له فرصة الفخر وما أكثر ما جمع شعره الإسلامي بين مفاخر الجاهلية والإسلام وهذه أبيات من قصيدة جمعت بين فخره الجاهلي والإسلامي حيث يقول :

فإن تسألي الأقوام عني فإنني ... إلى محتد تنمي إليه المحاتد
وجدي خطيب الناس يوم سميحة ... وعمي ابن هند مطعمُ الطير خالد
ومنا قتيل الشعب أوس بن ثابت ... شهيداً وأسنى الذكر مني المشاهد
وفي كل دار ربة خزرجية ... وأوسية لي في ذراهن والد

كشف حسان في هذه الأبيات عن أصله العظيم الذي ينتمي إليه ، وعنى بجده الذي خطب الناس يوم سميحة (وهو يوم من الأيام التي دارت بين الأوس والخزرج ، وفنى فيه من فني ثم تداعوا إلى الصلح ، وحكموا المنذر بن حرام جد حسان أو ثابت بن المنذر والده فقضى بينهم وتعاهدوا وكان الفضل في ذلك الصلح الذي حقن الدماء لتلك الخطبة التي خطبها في الحيين ، وأما عمه ابن هند مطعم الطير فهو خالد بن زيد بن كليب وكان ينحر الإبل للأضياف فيأكل منها الناس والطير ، وأما قتيل الشعب فهو أوس بن ثابت أخو حسان وقد قتل يوم أحد وقصد بالمشاهد مشاهد الحروب ، ثم بيّنَ أن كل دار جامعة سواء أكانت داراً أوسية أم خزرجية له في أعالي تلك الدار أصل .

وكم سجل حسان للأجيال مكارم قومه في الجاهلية فهم أولاد عمرو بن عامر وهم الملوك وأبناء الملوك

كجفنة والتمتام عمرو بن عامر ... وأولاد ماء المزن وابني محرق
وحارثة الغطريف أو كابن منذر ... ومثل أبي قابوس رب الخورنق

وبعد أن تحدث عن أمجاد أصوله انتقل فبين نصرة قومه لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أتاهم وقد أظلمت الأرض بين عينيه وبين موقف قريش من محمد صلى الله عليه وسلم ومن دعوته فقال :

أتانا رسول الله لما تجهمت ... له الأرض يرميه بها كل موفقِ (١)
تُطرِّده أفناء قيس وخندفٍ ... كتائب إلا تغد للرَّوع تطرُقِ (٢)
فكُنّا لَه من سائر الناس معقلا ... أشم منيعا ذا شماريخ شُهّقِ
فنحن ولاة الناس في كل موطن ... متى ما نقل في الناس قولا نُصدّقِ
توفق في أحكامنا حكماؤنا ... إذا غيرهم في مثلها لم يوفّقِ

في هذه الأبيات بيّن الشاعر تنكر قوم الرسول صلى الله عليه وسلم له وتألبهم عليه حين فوقوا سهامهم نحوه واجتمع على طرده أبناء قيس وخندف فلاذ بالأنصار حيث لقي بهم الحصن المنيع الشاهق الذي لا ينال ثم كشف حسان عن مكانة قومه وأنهم ولاة الناس وقضاتهم الموفقون في أحكامهم حين لم يوفق غيرهم .

وإنا لنلمس في القصيدة كلها قوة في الأسلوب وروعة في التصوير تدفع أحكام أولئك الذين رموا شعر حسان الإسلامي كله بالضعف والحقيقة أن الشاعر حين تثور في نفسه ثورة المفاخر يستوحي من تلك الثورة العبارة العالية والصورة الغالية التي تضعه في مصاف كبار الشعراء .

حسان الثائر لكرامة الأنصار

لبس ثمت من ينكر فضل الأنصار وسبقهم وإيواءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولصحبه من المهاجرين وأن الله أعز بهم الإسلام وأقام بناءه .

وإن أولئك الأنصار حين أدوا ما أدوا للإسلام ما كانوا يرتقبون شكراً ، ولكن حسان الشاعر بدا له أنهم أقصوا عن المكانة التي يستحقونها حين قدم الرسول صلى الله عليه وسلم بني سليم على الأنصار يوم فتح مكة ، ولم يكن تقديم الرسول لبني سليم يحمل وراءه تقديمهم على الأنصار ولكن لعل الرسول خاف اشتباك قريش والأحابيش بالأنصار لأنهم هم القوة التي فتكت بسادة قريش في بدر وفي أحد وفي الخندق، ومن ثم أراد الرسول

(١) تجهمت : تنكرت ، والموفق : الذي جعل فوق السهم في الوتر ليرمي به .
(٢) أفناء : النزاع من قبائل مختلفة ، تطرق : تتكهن وتحتال من طرق الحصى أي الضرب به وهو نوع من التكهن .

أن يجنب فتح مكة الدماء لأنه لم يزل يأمل في أن ينسى أهلها الدماء ويقبلوا على الإسلام ، أو لعل الرسول أراد أن يبين لقريش أن جيش الفتح ليس قوامه الأنصار ، بل ها هي تلك طلائعه تموج في ألف من بني سليم وقد غاب عن حسان رأى الرسول في تقديم بني سليم على الأنصار فثارت شاعريته وقال :

وأتِ الرسول فقل يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدِّل البشَرُ
علام تُدعى سليم وهي نازحة ... أمام قوم همُ آووا وهم نصروا
سماهم الله أنصارا لنصرهمُ ... دين الهدى وعوان الحرب تستعرُ
وجاهدوا في سبيل الله واعترفوا ... للنائبات فما خاموا وما ضجروا
والناس ألْبٌ علينا ثم ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزَرُ
ونحن جندك يوم النصف من أحد ... إذ حزّبت بطراً أشياعَها مُضَرُ
فما ونينا وما خمنا وما خبروا ... منا عثاراً وجل القوم قد عثَروا

هذه صفحة من كفاح الأنصار ينشرها حسان وهي مقبولة من شاعر الرسول الحريص على أن تظل للأنصار مكانتهم في الطليعة بين المسلمين وألا تقصيهم الأيام عن مكانهم ، ولعل ذلك الحرص هو الذي فجر أحاسيس الشاعر فنادى الرسول : يا خير مؤتمن على مكانة الأنصار وهو يسوي الصفوف حتى لا تغيب في غمار الأحداث مكانتهم وهم المجاهدون ، وتساءل الشاعر علام تقدم سليم وهي بعيدة أمام الأنصار الذين جاهدوا في الله حق الجهاد وما جبنوا في معركة ولا ضجروا من طولها حين تألب العرب عليهم فلم يعصمهم منهم غير السيوف والرماح فهم الذين ثبتوا في أسفل أحد حيث جمعت مضر الأشياع والأحزاب للقضاء على الإسلام والمسلمين ولم تفتر عندئذ للأنصار همة وما نكصوا وما عثروا حين عثر الناس جميعاً وتساقطت عزائمهم .

وكان جواب الرسول على ثورة حسان خطبته بعد تقسيم غنائم هوازن وألف قلوب القرشيين بالكثير منها وقد ختم الخطبة بقوله : **لَوْ سَلَكَ النّاسُ شِعْباً وَسَلَكَ الأنْصَارُ شِعْباً لَسَلَكْتُ شِعْبَ الأنْصَارِ ، ودعا للأنصار ولأبناء الأنصار ، وكان في مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم خير ما يقنع حسان ويطمئنه على مكانة الأنصار.**

❀ ❀ ❀

الهجاء في شعر حسان

كان الباعث على التهاجي في الجاهلية تلك الأحقاد التي أثارتها العصبيات والمنافرات والمفاخرات ، فاندفع الشعراء وراء أحقادهم وأحقاد قبائلهم يطعنون أعداءهم ، بل قد يسرفون في طعن الأعراض لتشتفي النفوس حين تدمي الطعنات نفوس الأعداء .

وقد وجد هذا اللون مجاله في الصدر الأول للإسلام بعد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعبئة قريش الشعراء لهجاء الرسول لإضعاف شأنه وشأن دعوته بين العرب ، ولهذا أغرت قريش أولئك الشعراء من أمثال ابن الزبعري وعمرو بن العاص وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم الرسول .

وحين طرقت أهاجيهم أسماع الرسول جند طائفة من الشعراء على رأسهم حسان للدفاع عنه والنيل من أعدائه فخاض حسان ميدان الهجاء ولم يقصر هجاءه على الأفراد بل هجا البطون والعشائر والقبائل ؛ فهجا أبا سفيان بن الحارث وابن الزبعري وعمرو بن العاص ، وصفوان بن أمية ، وأمية بن خلف ، والوليد بن المغيرة والحارث بن هشام وأبا جهل والعاص بن المغيرة وحكيم بن حزام ، وأبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة وهجا من القبائل والبطون والعشائر : هذيلاً ، ومزينة ، وبني عبد الدار ، وبني العوام ، وبني المغيرة وهوازن وثقيفا ، وبني أسد ، وبني الحماس ، وبني سهم .

وقد احتل الهجاء في ديوان حسان مكاناً كبيراً :

قال في أبي سفيان بن الحارث قبل أن يسلم في عام الفتح قصائد متعددة قال في بعضها :

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... فأنت مجوف نخب هواءُ[1]
بأن سيوفنا تركتك عبداً ... وعبد الدار سادتها الإماءُ[2]
هجوت محمداً فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاءُ
أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداءُ

والبيت الرابع من هذه الابيات تأثر فيه حسان بالأسلوب القرآني في قوله تعالى : «وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .

وفي قصيدة أخرى يقول لأبي سفيان :

وأنت زنيم نِيطَ في آل هاشم ... كما نِيطَ خلف الراكب القدح الفردُ

(١) المجوف : الجبان الذي لا قلب له ، والنخب والهواء مثله .
(٢) عير حسان بني عبد الدار حين حملت إماؤهم اللواء بعد أن سقط تحته تسعة من بني عبد الدار .

وإن امرأ كانت سمية أمه وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهدُ

والنسب الذي خلص لحسان ليطعن منه أبا سفيان دون أن يمس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه ابن سمية وهي أم ولد لعبد المطلب ، وسمراء أم أبيه الحارث وهي أيضاً أم ولد ، ولم يكد يبلغ هذا الشعر أبا سفيان حتى قال : إن هذا الشعر لم يغب عنه ابن أبي قحافة حيث كان أبو بكر أعلم قريش بالأنساب وعنه تلقى حسان علم النسب فعرف كيف يطعن ويسدد الطعن لمن يهجو دون أن يمس أقرباء المهجو من المهاجرين وهجا حسان ابن الزبعري بعد أن راح يفخر بأصوله فقال له :

فلا تفخر فقد غلبت قديماً عليك مَشَابِهٌ من آل حام

وقد رأى حسان أن ابن الزبعري يغلب على أصوله السواد وهذا يدل على أنه غير عربي لأن العرب ساميون والساميون ليسوا سوداً ، وإن الشاعر ليعلم حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « لَيْسَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ فَضْلٌ إلاَّ بِالتَّقْوَى » ولكنه الهجاء الذي جعل الشاعر يتلمس مغمزاً ليطعن منه ابن الزبعري فنفى عنه العروبة حيث رأى فيه مشابهاً من آل حام .

وطعن صفوان بن أمية بأن أمه كانت أمة لمعمر بن حبيب في قوله :

من مبلغ صفوان أن عجوزه أمةٌ لجاره معمر بن حبيب

وهجا الوليد بن المغيرة فطعنه بأنه عبد للإبل الشائلة التي جف لبنها بعد الحمل فقال فيه :

وأنت ابن المغيرة عبد شول قد اندبَ حبل عاتقك الوطاب

والندوب : أثر الجراح ، والعاتق : ما بين العنق والمنكب ، والوطاب : سقاء اللبن ، وبهذا رماه بأنه لم يكن غير عبد تولى رعاية الإبل وأثر هذه الرعاية تلك الندوب التي في عاتقه مما كان يحمل من سقاء اللبن بعد أن يحلب تلك النوق .

وطعن الوليد بأنه ينتمي إلى صعقب الحداد الذي نزل في قريش وادعى الانتماء اليها وهو ليس منها واسمه الحقيقي ديسم بن صعقب وذلك في قوله :

وصعقب والد لأبيك قين لئيم حل في شعب الأروم
تسمون المغيرة وهو ظلم وينسى ديسم الاسم القديم

وتناول حسان العاص بن المغيرة والحارث بن هشام بن المغيرة .
وهجا أبا جهل في كثير من ديوانه ومما قال فيه :

سمـــاه معشـــره أبا حكم والله سمـــاه أبا جهـــل
أبقـــت رياسته لمعشـــره غضب الإلـــه وذلة الأصـــل

وهجا حسان أبا سفيان بن حرب وزوجته كما هجا عمرو بن العاص وأمية بن خلف .

وقد هجا حسان هذيلا بسبب موقفها يوم الرجيع (وهو ماء لهذيل بين مكة وعسفان) حين غدروا بوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى (عضل) ليفقهوهم في الدين حتى إذا بلغوا ماء الرجيع غدر بهم أولئك الذين طلبوا من رسول الله إيفادهم واستصرخوا عليهم الهذليين فحملوا عليهم لأسرهم وتقديمهم إلى أهل مكة ليصيبوا بهم خيراً لأنفسهم ، وكان وفد الرسول هم مرثد الغنوي وخالد الليثي ، وعاصم بن ثابت وخبيب بن عدى وزيد بن الدثنة وعبدالله بن طارق وقاوم منهم من قاوم فقتل ولان من لان فأسر وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم فقاوم في الطريق عبدالله بن طارق وقتل بحر الظهران وأما خبيب وزيد فقد بيعا لقريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة .

وقد هزت هذه النكبة قلوب المسلمين وشمل الأسى كل بيت في المدينة وترجم حسان عن مشاعر المسلمين في أكثر من قصيدة هجا بها الهذليين ومما قال :

لو خلق اللؤم إنسانـــاً يكلمهـــم لكان خير هذيل حين تأتيهـــا
ترى من اللؤم رقماً بين أعينهـــم كما كـــوى أذرع العانـــات كاويها
تبكـــي القبور إذا ما مات ميتهـــم حتى يصيح بمن في الأرض داعيها
مثل القنافذ تَخْزي أن تفاجئهـــا شد النهار ويلفي الليـــل ساريهـــا

إن الشاعر ليتصور أن اللؤم إذا تجسم فصار إنساناً يتكلم لكان ذلك خير من يعبر عن هذيل حين يطرقها طارق أو يلم بها نزيل ، وإن اللؤم ليبدو نقشه في عيونهم واضحاً كأثر الكي الذي يبدو على أذرع الأتان ، هذه صورة أحيائهم أما موتاهم فهم موضع سخط القبور والضجر بهم حتى ليستصرخ داعي القبور بمن في الأرض يطلب الخلاص منهم فكأن بطن الأرض تكره موتاهم واللؤم يمثل أحياءهم ثم أبرز صورة لهم : هي صورة القنافذ التي تستخزي من المفاجأة نهاراً فلا ترى إلا ليلاً وإن هذيلاً لكذلك يتوارى أبناؤها عن أعين الناس نهاراً فإذا جن الليل ظهروا يدبون في الأرض .

وهجا حسان في جاهليته وإسلامه مزينة ، وبنى عبد الدار وهجا ثقيفاً فقال :

ثقيف شر من ركب المطايا وأشباه الهجارس في القتال[1]
ولو نطقت رحال الميس قالت ثقيف شر مَن فوق الرحال[2]

وقال في هوازن :

أبلغ هوازن أعلاها وأسفلها أن لست هاجيها إلا بما فيها
تبلى عظامهم إماهمُ دُفنوا تحت التراب ولا تفني مخازيها
كأن أسنانهم من خبث طعمتهم أظفار خاتنة كلّت نواسيها

وهجا بني الحماس بأكثر من قصيدة ولا يتسع المقام لعرض ما قيل وحسبنا ما قدمنا من الأهاجي التي طعن بها حسان الخارجين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن هجوه أو غدروا بأصحابه أو نالوا من دعوته .

❀ ❀ ❀

المراثي في شعر حسان

لقد عاش حسان مع أحداث الإسلام يسجل ويصور ، وكان وفياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه مجدهم أحياء وبكاهم شهداء أو موتى ، وقد كشفت مراثيه عن عواطف الشاعر المصور لأولئك الراحلين عن دنيا الناس تاركين وراءهم بطولات وتاريخاً وآثاراً وأخلاقاً وأعمالاً .

رثى أصحاب الرجيع وخص خبيباً بأكثر من مرثية لأواصر القربى التي ربطت بينهما **ولكثرة ما هز مشاعره من أنات الثكالى اللواتي بكين خبيباً من حوله ، وبكى حمزة وبكى شهداء مؤتة وبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اختاره الله لجواره بكثير من القصائد حيث أثارت الفاجعة مشاعر حسان فتدفقت عبراته مع الباكين ، وضجت أناته مع من هزتهم المصيبة فتجاوب دمع حسان وشعره مع دموع المسلمين حين رأى مسجد الرسول ومعهد ورسوم دياره وقد خيم عليها الأسى وكم وقف بتلك المعاهد والرسوم فبكى ورثى قال :**

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
وواضح آيات وباقي معالم وربع له فيه مصلي ومسجد

(١) الهجارس : الثعالب .
(٢) الميس : نوع من الشجر تصنع منه الرحال .

عرفت بها رسم الرسول وعهده وقبراً به واراه في الترب ملحد
ظللت بها أبكي الرسول فأسعدت عيون ومثلاها من الجفن تسعد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وما فقد الماضون مثل محمد ولا مثله حتى القيامة يفقد

ومن السهل الممتنع في رثاء الرسول قول حسان :

كنت السواد لناظري فعمى عليك الناظر
من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر

ورثى حسان عمر حين اغتاله فيروز في أبيات منها :

وفجعنا فيروز لا دَرَّ دَرُّه بأبيض يتلو المحكمات منيب

وعنى بالأبيض : النقي السريرة وبالمنيب : الراجع إلى الله في كل ما أمر به .

وعاش حسان أيام فتنة عثمان دامي القلب يرقب الأحداث التي تعصف بالمسلمين ، ويرى أصابع ابن سبأ تعبث بالعقول في مصر والكوفة والبصرة وفي غيرها من الحواضر الإسلامية ، ثم رأى الفتنة وهي تقلق مضاجع الآمنين في المدينة ، ثم رأى الخليفة وهو طعمة للألسنة تنهشه من كل جانب ، وفي غمار المطاعن أبصر الثائرين يقذفون الخليفة بالحصى ، ثم رأى الثورة تموج شرورها وتصطخب حتى تمزق الخليفة وهو بين يدي كتاب الله ، وقد ترجم حسان بعض جوانب الفتنة وهدد وتوعد الثائرين في قوله :

إن تمس دار ابن أروى منه خالية باب صريع وباب مخرق خَرِب
فقد يصادف باغي الخير حاجته فيها ويأوي إليها الذكر والحسب
يا أيها الناس أبدوا ذات أنفسكم لا يستوي الصدق عند الله والكذب
ألا تنيبوا لأمر الله تعترفوا بغارة عصب من خلفها عُصَب
فيها حبيب شهاب الحرب يقدمهم مستلئماً قد بدا في وجهه الغضب

في هذه الأبيات يبصر حسان الناس بالغد وما يجر وراءه إن خلت دار عثمان منه وانتهكت حرماتها ثم يهدد الثوار بموقف حاسم تتحرك فيه الجيوش من أطراف الملك الإسلامي وبينهم حبيب بن مسلمة الفهري شهاب الحرب وكان قد بعث به معاوية على رأس القوات التي تقدمت من الشام إلى المدينة حينما قامت الثورة ولكن حبيبا ما كاد يقارب المدينة حتى سمع نعي عثمان فعاد أدراجه بعد أن وقعت الواقعة وذكر حسان في أبيات مآخذ الثوار على عثمان وما طلبوا منه قال فيها :

ما نقمتم من ثياب خلقة وعبيد وإماء وذهب[1]
قلتم بدل فقد بدلكم سنة حرى وحرياً كاللهب[2]

❀ ❀ ❀

شعر حسان سجل للأنساب

كان شعر حسان سجلاً للأنساب التي ربما ضاعت في أعماق التاريخ وبخاصة في أهاجيه التي غاص فيها وراء الأنساب ليرى تناسل مهجوه من أمة وإن بعدت أو من عبد وإن نأى فيرمي مهجوه ، ويسدد إليه الطعنات من ذلك الجانب ، وإن إبرازه لمثل ذلك في شعره جعل من ذلك الشعر مرجعاً لعلماء الأنساب ومن ذلك قوله في هجاء أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وإن امرأ كانت سمية أمه وسمراء مغلوب إذا بلغ الجهد

وبهذا كشف نسب أبي سفيان بأن أمه كانت أم ولد كما كانت سمراء أم أبيه الحارث أمة كذلك وقوله في ابن الزبعري حين هجاه :

قسامة أمكم إن تنسبوها إلى نسب فتأنفه الكرام

وقسامة كانت أمة سوداء لقيس بن عامر الخولاني وهي أم سهم وجمح وهي جدة نائية لابن الزبعري ولكن حسان غاص وراء ذلك النسب حتى بلغ قسامة فرمى بها ابن الزبعري .

وكذلك طعنه لصفوان بن أمية حين هجاه بقوله :

من مبلغ صفوان أن عجوزه أمة لجاره معمر بن حبيب

فوصمه بأن أمه كانت أمة لمعمر بن حبيب .

وقد رمى قبيلة مزينة بأن أمهم كانت نوبية سوداء فقال في هجاء أحدهم :

وأمك سوداء نوبية كأن أناملها الحنظب

والحنظب نوع من الخنافس وأي تصوير لأنامل النوبية أدق من تشبيهها في شكلها وتحركها بالخنافس .

---

(١) نقم الشيء : كرهه ، والثياب الخلقة : المختلفة في هيئتها وألوانها وأنواعها .
(٢) السنة الحرى : المجدبة .

وكم بين شعر حسان من كشف عن أنساب أولئك الذين تناولهم ، ولقد كان معلمه الذي يقف به على دوحة الأنساب وفروعها والفروع التي تشابكت بها مع غيرها هو أبو بكر فهو خير ملم بأنساب العرب .

❀ ❀ ❀

شعر حسان الإسلامي

تصور مشاعر الشعراء ، وتنفعل أحاسيسهم بالمؤثرات التي تهز القرائح فتفجر ينابيع الشعر ، وعلى قدر الانفعال بتلك المؤثرات تكون قوة الشعر أو لينه ، ومشاعر الشاعر تختلف انفعالاتها باختلاف المؤثر والزمان والمكان والموقف ، ويختلف الشعر تبعاً لكل ذلك وتبعاً لاختلاف الأغراض ، بل قد يتفق الغرض وتختلف فيه القصيدة عن الأخرى ، كل ذلك يمكن أن يقال في شعر حسان فلا نحكم له بقوة شعره الجاهلي كله ونرمي شعره الإسلامي باللين والضعف ، ونتلمس الأسباب لنصم كل شعره الإسلامي بالضعف .

والحق الذي يقال : إن شعر حسان كشعر غيره فيه القوي الرائع وفيه الضعيف ، بل إن القصيدة الواحدة للشاعر نرى فيها بيتاً يحملنا على أن نحكم له بأنه (عين القصيدة) وإلى جانبه أبيات لا عمق فيها ولا قوة فما لنا نتجنى على حسان المسلم ونتحامل على شعره الإسلامي كله فنصمه بالضعف ولعلنا وفينا بما قدمنا حق شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم على الأجيال جزاء ما قدم من أعز ما يملكه العربي ليدرأ عن الرسول ألسنة الخائضين وهو العرض حيث قال :

فإن أبي ووالـده وعرضـي ... لعرض محمـد منكم وقـاء

جزاه الله عما قدم أحسن الجزاء .

الدكتور : محمد محمد خليفة علي

ولد سنة ١٩٠٩م بمحافظة بني سويف إحدى محافظات جمهورية مصر العربية ، وحفظ القرآن وهو في العاشرة من عمره ، ثم التحق بالأزهر .

حصل على الشهادة العالية في كلية اللغة العربية سنة ١٩٣٦م والعالمية مع إجازة التدريس سنة ١٩٣٨ وعين في نفس العام مدرساً في الأزهر وارتقى إلى مدرس أول ، فمفتش للغة العربية ، فمدير عام لامتحانات الأزهر ، فمدير عام للتعليم الثانوي وانتهت مدة خدمته سنة ١٩٧٥ .

وفي سنة ١٩٦٦-١٩٦٧ حصل على الدكتوراه ، في البلاغة والأدب من جامعة الأزهر بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى ، وندب إلى جانب أعماله للتدريس في المعهد العالي للدراسات الاسلامية والعربية التابع لجامعة الأزهر .

وبعد انتهاء خدمته تعاقد مع الجامعة الاسلامية في المدينة للتدريس بها وما زال يقوم بتدريس أدب اللغة في كليتي الشريعة واللغة بالجامعة الاسلامية .

مؤلفاته :

١ ـ كتب في البلاغة والأدب ، تدرس في الأزهر منذ خمسة عشر عاماً .
٢ ـ كتب في الأدب ، درست في المعهد العالي للدراسات الاسلامية والعربية التابع لجامعة الأزهر .
٣ ـ تعليق على شرح ابن عقيل في النحو والصرف ، درس في المعهد العالي للدراسات الاسلامية والعربية .
٤ ـ مذكرات في الأدب تدرس حالياً في الجامعة الاسلامية في كليتي الشريعة واللغة .
٥ ـ كتاب مع نزول القرآن مطبوع .
٦ ـ كتاب : « مع الايمان في رحاب القرآن » يقوم بطبعه المجلس الأعلى للشئون الاسلامية .
٧ ـ كتاب كبير عن الخطابة في صدر الاسلام « لم يطبع » .
٨ ـ قصة شعرية في تاريخ عمر بن الخطاب « مطبوعة » .
٩ ـ ديوان شعر « لم يطبع » .
١٠ ـ بحوث أدبية في موضوعات مختلفة .
١١ ـ مقالات إسلامية تنشر في الصحف الاسلامية في مصر وغيرها .